المورد

مجلة تراثية فصلية محكمة

الحالة السياسية في الاندلس

في عهد دويلات الطوائف

بقلم الدكتور
عبدالجليل عبدالرضا الراشد
جامعة بغداد ـ كلية الاداب
قسم التاريخ

كانت الحوادث في الاندلس تنذر بتحول خطير، منذ ان استولى الحاجب المنصور على الامور ، فلم تكن الارستقراطية العربية ، التي فقدت نفوذها مؤقتا ، ولا افراد البيت الاموي ، يرضيهم حصر السلطة كلها في يد شخص من غير افراد البيت الحاكم ولا من اسرة لها مجدها وسابقتها في الزعامة ، غير ان قوة المنصور وجبروته وقسوته تجاه خصومه حالت دون القيام بأي حركة ضد سلطته وبطانته التي سيطرت على الامور في الاندلس ، ولعل المنصور ـ وهذا ما ايدته الحوادث ـ كان يدرك تمام الادراك انه لا يمكنه الاعتماد على العناصر العربية ، في دعم مركزه ، لذلك فقد اعتمد على عناصر من غير اهل الاندلس ليكونوا عماد جيشه ومركز ثقته ، وبهذين العنصرين اللذين كونا معظم جيشه استطاع ان يحكم البلاد بقوة وعزم ، وساد جو من الهدوء ولكنه كان مشوبا بالترقب الذي يسبق العواصف السياسية والحروب الاهلية. فالارستقراطية العربية التي كانت تمسك زمام الامور في الاندلس ، والتي فقدت مراكزها وامكانياتها في عهد المنصور . والتي لم يقضى عليها تماما ، بل توارت مؤقتا خوفا ورهبة ، انما كانت تنتظر الفرصة لتأخذ دورها وتستعيد مكانتها التي احتلها الان نوع جديد من الارستقراطية وهي ارستقراطية العبيد الجديدة التي نمت وترعرعت بحماية دكتاتور الاندلس الذي كان يسنده البربر .

لقد اطلق المؤرخون المسلمون على هذه الفترة التي استمرت قرابة عشرين عاما بعد انحلال الخلافة الاموية في قرطبة ، وابتداء ظهور دول الطوائف ، اطلقوا عليها اسم (الفتنة البربرية) وذلك لان البربر الذين ظلوا يتوافدون على الاندلس طيلة عهد الدولة العامرية والذين كونوا في وقت من الاوقات غالبية الجيش الاندلسي ، اصبحوا عبئا ثقيلا على المجتمع الاندلسي والدولة ، وكانت قوتهم من المكانة بحيث ان الدولة اصبحت تخشى بأسهم . بل انهم تحكموا في كثير من الاوقات بالاوضاع وسير الحوادث ، وساهموا بانقلابهم ضد عبدالرحمن بن ابي عامر في سقوط الدولة . بعد ان كانوا هم عمادها .

وكان هذا الامر اول نتيجة سيئة لسياسة المنصور بن ابي عامر ـ الذي لم يكن له خيار في هذا الامر ـ عندما راح بدون تحسب للمستقبل يحشد منهم الاعداد الهائلة في قرطبة .

لقد اثارت هذه الحوادث الدهشة والجدل ذلك لانها جاءت بعد دور المجد والعظمة الذي وصلت اليه الدولة الاموية في عهد المنصور والمظفر ، فقد اصبحت الاندلس اقوى دولة في تلك المنطقة ، واجبرت جيوش الاندلس قبائل البربر في المغرب على الاعتراف بسيادتها وجعل اغلب اقسام المغرب يدار من قبل حكومة قرطبة، وكان النصارى يتجنبون التحرش بها ويقدمون فروض الطاعة والولاء ، وكان الامن الداخلي مستتبا وازدهرت التجارة والحياة الفكرية . ولكن هل كانت اسباب التصدع بفعل عوامل خارجية ؟ من المؤكد انها لم تكن كذلك ، حيث كان النصارى في الشمال يخطبون ود قرطبة ويتسابقون للحصول على رضاها والرغبة في العيش معها بسلام ، وهو ما فقدوه طيلة حكم المنصور وابنه المظفر .

فاذا كانت هناك اسباب وعوامل داخلية كامنة في جسم المجتمع الاندلسي نتيجة للتناقضات التي سادت هذا المجتمع ، والتي تمتد بذورها الى سنين بعيدة ، ولكن قوة الحكام الذين جاؤا بعد الناصر منعت الانفجار او على الاقل اجلته الى حين . فالتباين الواضح بين اقسام المجتمع الاندلسي الذي كان اهم طوائفه العرب وهم الغالبية والذين شعروا بانهم قد

غلبوا على امرهم وتوارى زعمائهم خوفا من البطش والارهاب اللذين فرضهما المنصور والبربر ، شعروا بعد موت المنصور ، بأن دورهم قد آن أوانه ، وانهم لا بد ان يأخذوا زمام المبادرة من جديد ، واستعدوا لسحق هؤلاء الاغراب الذين اذلوهم وابعدوهم عن المسؤولية التي مارسوها مئات السنين . والعنصر الثاني هم البربر ، وهم لايزالون يفتخرون بأمجاد اجدادهم الذين رافقوا طارقا عند فتح الاندلس ، والذين كانوا يعتقدون ان العرب سلبوهم حقهم في التمتع بما يستحقونه جزاء ما قدموه من خدمات وتضحيات ، وجاءتهم الفرصة مناسبة في ظل المنصور ولم يكن هؤلاء على استعداد للتخلي عن مراكزهم التي كسبوها بعرقهم ودمائهم وهم على استعداد لعمل أي شيء وركوب المخاطر حتى لايعودوا فئة مهملة كما كانوا ايام الدولة الاموية ، فعندما شعروا ان مركزهم بدأ يتحرج ولمسوا ضعف عبدالرحمن بن ابي عامر ، سرعان ما انقلبوا عليه واسلموه لخصومه وراحوا يبحثون عن شخص يلتفون حوله ، ولم يكن الصقالبة بأقل من البربر خوفا على مراكزهم وهناك فئة اخرى وهم المولدون النصارى ، وهؤلاء كانوا دائما موضع شك من قبل السلطات الحاكمة في الاندلس ، وكان لهم دور كبير في هذه الاضطرابات ولم يكونوا يتورعون عن تلقي المساعدات والنصح من اخوانهم في الشمال .

ويعد هذا الدور الذي اطلق عليه المؤرخون ـ عصر الطوائف ـ من اكثر ادوار التاريخ الاندلسي تشعبا واضطرابا . وقد شغلت هذه الفترة ما يقارب من سبعين عاما انقسمت فيه البلاد الى وحدات سياسية ، تقوم في كل منها دولة وبلغ التمزق غايته ، وقد تدهورت الاوضاع السياسية والاقتصادية وتراجعت حدود الاسلام في الاندلس الى الوراء . واشهر هذه الدويلات التي قامت مقام الدولة الاموية: اشبيلية وقرطبة ، وسرقسطة ، والمرية ، اما الامارات البربرية فهي مالقة ، وغرناطة ، وبطليوس ، وطليطلة ، ودانية والجزائر الشرقية وهذه حكمها الصقالبة . وكانت الثقة معدومة بين اهم عنصرين من عناصر المجتمع الاندلسي وهما العرب والبربر ، فلم يكن البربر يضمرون غير الحقد والكراهية للعرب الذين بادلوهم هذا الشعور (فأهل العدوة بالطبع يكرهون اهل الاندلس) ولا بد لنا من محاولة تحديد زمن ظهور هذه الدويلات ؛ فهل يمكن اعتبار سقوط الدولة العامرية بداية لتاريخ هذه الفترة ؟ ام ان الخلافة استمرت بعد ذلك ؟ يرى مؤرخ حديث ان سقوط الدولة العامرية يمكن اعتباره في نهاية المائة الرابعة للهجرة بداية هذه الفترة ـ الطوائف ـ فان الخلافة في هذه الفترة لم يكن يتعدى نفوذها مدينة قرطبة وما حولها ولكن دوزي ربما عد بداية عصر الطوائف بعد ان سيطر آل جهور على الامور في قرطبة بعد زوال دولة بني حمود ، وتولى الامور بقية المدن رؤساء البلد من زعماء العرب والبربر ، كآل عباد في اشبيلية ، وبني حبوس في غرناطة ، ولعل ابن عذارى استطاع ان يحدد لنا تاريخ بداية هذا الدور وذلك عند عزل آخر خليفة اموي ـ المعتد بالله ـ سنة ٤٢٢هـ (من هذا التاريخ كثرت الفتنة ، وتمادت وانتزى كل احد في موضعه ، واستبد رؤساء الاندلس ، وثوارها فيما بين يديهم من البلاد والمعاقل وبنى بعضهم على بعض) . وحيث تغلب الصقالبة والبربر والعرب على ما بيدهم ، واعلنوا استقلالهم وانفصالهم عن قرطبة وعدم اعترافهم بسلطتها .

والواقع انه من الصعب ان نعد بداية عصر الطوائف يأتي مباشرة بعد سقوط الدولة العامرية ، حيث ان الثوار الذين سيطروا على الامور بعد مقتل عبدالرحمن بن ابي عامر ، كانوا يلقبون انفسهم بالخلفاء ، ولم يجاهر حكام او رؤساء الاقاليم بالانفصال الا بعد ان فقدت السلطة المركزية في قرطبة سيطرتها على الاقاليم واسندت رئاسة الحكومة في قرطبة الى عميد آل جهور ، ففي هذه الفترة اي حوالي سنة ٤٢٢ هـ انفرط عقد الوحدة في الاندلس ، فقرطبة وحكومتها وجدت نفسها وسط صراع مرير نشأ بين البربر ومرشحيهم من جهة وبين الاندلسيين العرب : ومن المؤكد ان الحكومة المركزية كانت تنتظر الفرصة الملائمة لكي تعيد سيطرتها على الاقاليم بعد ان تستقر الامور ، ولكن الظروف بدلا من ان تخدم السلطة ، خدمت الحكام المحليين الذين سارعوا بالانفصال عن قرطبة ، بل انهم تمادوا اكثر من ذلك ، فاتخذوا لانفسهم القابا كالقاب خلفاء بني العباس كالمعتصم والمتوكل والناصر . ولا يمكن الاخذ برأي مؤرخ حديث والذي يرى فيه ان معركة (فينش) التي قضت على خلافة المهدي بن هشام بن عبدالجبار بن الناصر ، والتي قضت على كل امل في قيام الخلافة مرة اخرى ، فكان من نتائجها انقسام المعسكر الاندلسي الى قسمين البربر والاندلسيين ، بعد انتصار البربر على اهل قرطبة بمساعدة الكونت سانشوغرسيه فهذه المعركة اعطت الحكام المحليين الفرصة لكي يستقلوا بمقاطعاتهم بعد ان شعروا باستحالة عودة السلطة لقرطبة وقد حدثت هذه المعركة في « ربيع الاول سنة ٤٠٠ هـ ٣ نوفمبر ١٠٠٩ م .

ولا يمكن الاخذ بهذا القول ، على انه مسألة

مسلم بها ، فان حكام الاقاليم والولايات كانوا يدينون بالولاء المشوب بالتقرب للخلفاء الذين تولوا الامر كالمهدي والمستعين وآل حمود : وظل الناس لفترة طويلة يأملون في عودة الخلافة الى سابق مجدها وقوتها في ادارة شؤون البلاد ، اذا ما عاد الاستقرار ووضع حد لهذه الفوضى ولهم في خلافة الناصر الذي جاء بعد جده خير مثال على امكانية عودة الامور الى سابق عهدها وفي ظروف كادت تشبه الظروف التي تعيشها الاندلس في هذه الفترة فآل امية عادوا مرة اخرى للخلافة ، ولو ان الظروف هيأت رجالا من هذا البيت من طراز الناصر والمستنصر لاستطاعوا اعادة الهيبة للدولة في نفوس الناس، ولبسطوا سلطانهم على كل البلاد الاندلسية ، ولكن سوء الحظ الذي لازم هذا البيت في سنواته الاخيرة لم يهيىء الفرصة لهم من جديد وكان آخرهم هو المعتمد بالله ـ هشام الثالث ـ فقد اطيح به في ثورة قرطبة .

هذه الثورة اعطت المبادرة للرؤساء والزعماء باعلان استقلالهم وظهور دويلات الطوائف ابتداء من سنة ٤٢٢ هـ ، وحيث سلمت السلطة في قرطبة الى ابن جهور وراث المدن الاخرى ان تحذوا حذو قرطبة .

صحيح ان الخلافة كسلطة مركزية قوية قد قضى عليها بالثورة التي قامت ضد عبدالرحمن بن ابي عامر ، الا ان العناصر التي ورثت هذه الاسرة وهم البربر والعرب والصقالبة ، كان كل منهم يرى في نفسه القوة والصلاحية في اعادة الامور الى سابق عهدها ، واعادة هيبة الخلافة كما كانت عليه ، وقد تمركز البربر في الجنوب من الجزيرة : اما الصقالبة فقد استولوا على القسم الشرقي وبقيت الاسر العربية تحكم ما بقي من ولايات .

انه ليس من السهل القاء اللوم على فئة واحدة من فئات المجتمع الاندلسي في سبب هذه الاضطرابات، فقد قام البربر والصقالبة الذين اشتراهم المنصور لحراسة قصره (ثلاثة عشر الف) والاندلسيون المنحدرون من اصول محلية او عربية ، كل هؤلاء يتحمل جزء من سوء الوضع التي آلت اليه البلاد .

لقد كان لتطور المجتمع في عهد الدولة الاموية ورخائه وظهور المدن الكبرى من العوامل المساعدة في تفكك وحدة البلاد . فقد تكونت طبقة لها اهميتها تسندها جذورها العريقة ، وقد شعرت هذه الطبقة بعد انهيار السلطة الدكتاتورية التي اقامها المنصور ان الوقت قد حان لتأخذ مكانها في سير الاحداث ، فالناصر بن ابي عامر الذي جاء بعد وفاة اخيه المظفر والذي لم يكن من القوة او الذكاء على تسيير الامور كوالده واخيه ساهم بضعفه وطيشه على انهاء حكم اسرته ، وذلك عندما استثار المحافظين من اهل الاندلس الذين لا يروق لهم انتقال الخلافة الى البيت الاموي ، بطلبه من الخليفة ان يعينه وليا لعهده ، فلم يجد هؤلاء بدا من الثورة والقضاء عليه ووجد هؤلاء في شخص « محمد بن هشام » من احفاد الناصر ، والذي كان يضمر الحقد لآل عامر لقتلهم اباه ، الشخص المنشود : ولم يكن صعبا على محمد هذا ان يجد المؤيدين من اهل قرطبة ، هؤلاء الذين عرفوا بسرعة تغيرهم ، ولعل محمد بن هشام قد اصابته الدهشة من هذا التأييد الواسع ، وربما لم يتوقع ان يتخلى البربر بهذه السرعة عن ابن ولي نعمتهم ، ولم يفق المهدي واتباعه من دهشتهم الا عندما قدم لهم راس عبدالرحمن بن ابي عامر ، الذي انتهت بمقتله فترة من اروع فترات الحكم الاسلامي للاندلس ، واكثرها قوة وهيبة وقسوة ، وسرعان ما خابت آمال البربر الذين غدروا بسيدهم والذين كانوا يتوقعون ان تكون لهم المغانم ويعترف الحاكم الجديد بفضلهم فيكون لهم نصيب الاسد في الدولة الجديدة : ولعل هؤلاء تناسوا ما قاساه منهم اهل قرطبة الذين سرعان ما صبوا جام غضبهم على هؤلاء الدخلاء الذين اذاقوهم سوء العذاب وتحكموا في مصائرهم زمنا طويلا والان وقد جاء يوم الحساب فقد نهبت دورهم وصودرت اموالهم وقتلوا في كل مكان .

واسكرت النشوة اهل قرطبة ، واعتقدوا ان الامور رهن اشارتهم ، وهم الذين عرفوا بسرعة تقلبهم وتبرمهم من الحكام ، فسرعان ما انقلبوا على المهدي ، ولكنهم اخطأو الحساب هذه المرة ، فقد استطاع المهدي قتل هشام بن سليمان الذي رشحه اهل قرطبة للخلافة واصبح المهدي بين قوتين تكنان له العداء ، فأهل قرطبة الذين هزمهم ، والبربر الذين كوفئوا اسوا مكافأة والذين تحولوا الى ثوار دائمين ، لا تهدأ لهم حال ، فقد وجدوا ضالتهم في سليمان بن الحكم ، فبايعوه وسموه المستعين ، ولعل سليمان هذا كان يرى ـ على الرغم من مبايعة البربر له ـ عدم امكانية الاعتماد عليهم بصورة مطلقة ، فآثر ان يجرب ورقة اخرى ، فاستعان بالنصارى الذين اسرعوا بتقديم العون له وهم متأكدون انهم يضعفون الجانبين المتحاربين ويكون الربح لهم اخيرا ، وكان هؤلاء عند حسن ظن سليمان، فقد مهدوا له الطريق لدخول قرطبة على جثث عشرين الف قتيل من اهلها ولم يهنأ المستعين بنصره هذا فقد ظلت قرطبة تتأرجح بين الجانبين وضجر

الناس من الحروب والفتن وساءت الحالة ، وراى بعض العبيد وضع حد لهذه الالام والمآسي ولم يجدوا وسيلة الا قتل المهدي وعودة المؤيد المخلوع للخلافة وتحول البربر بقيادة سليمان الى لصوص وقطاع طرق يقتلون وينهبون دون تمعن وروية ولاقت منهم قرطبة الويلات والدمار ، واجبروا اهل المدينة المنكوبة على الرضوخ لتعيين سليمان خليفة .

في كثير من الاحيان عندما يضع البعض الخطط، لا يتوقع ان تفسدها هفوة بسيطة وتنقلب عليهم خططهم ، فبعد ان ظفر سليمان بالخلافة راى ان يكرم البربر الذين ساعدوه واوصلوه الى الحكم فعين اثنين من رجالهم هما القاسم بن حمود واخاه عليا على سبته والجزيرة الخضراء ، وكان علي يطمح الى ابعد من ذلك وكان يعد العدة لتولي الامور ، مستغلا نسبه البربري وضعف السلطة في قرطبة وارتباك الامور ، ولم يعدم وسيلة لذلك ، خاصة وان الناس كانوا يصدقون او على استعداد لتصديق كل ادعاء ربما يعيد لهم الامن والطمأنينة ، وعندما زحف على بن حمود على قرطبة بعد ان حصل على تأييد خيران العامري ، سبقته دعواه بانه انما جاء لاخذ ثار هشام المؤيد ، الذي اوصاه بذلك اذا ما قتله سليمان .

وهكذا لقى سليمان حتفه بيد الرجل الذي احسن اليه ، وليس هذا الامر بغريب ، ففي عصر كهذا عندما تضطرب الامور تسود روح الغاب لايمكن اعتبار الغدر وقطع اليد المحسنة اشياء يعاب عليها، فالقيم الاخلاقية لا تجد من يطالب بها ، فادعاء علي بن حمود ليس بحاجة الى كبير عناء لتكذيبه ، اذ ليس من السهل التصديق بان هشام قد طلب منه ذلك وهو يعلم انه من رجال سليمان ويمت الى البربر وهم سبب نكبة هشام ، ولكن عليا استمر في ادعائه هذا لعلمه انه لا يجرؤ احد على تكذيبه ، واتخذ علي بن حمود لقبا من القاب الخلافة وسمى نفسه الناصر .

الآن وقد اضحى البربر الاحتياطي الدائم لاي ثائر او متمرد ، فهم سرعان ما يلبون دعوة اي داع اذا ما اطمأنوا الى ان المغانم ستكون وفيرة على يديه. واذا ما راوا ان الشخص الذي التفوا حوله قد بدا يتغير عليهم وان مركزهم اصبح مهددا ، وسيطر البربر من خلال آل حمود زهاء ثلث قرن على الاجزاء الجنوبية من الاندلس .

ويبدو ان عليا بن حمود كان يعرف نوايا هؤلاء البربر ، فتصوراته بتقربه من الاندلسيين يستطيع ان يوفر عهدا من الاستقرار ، فاسرف في كرهه للبربر وملاحقتهم والتف حوله اهل قرطبة ومنحوه تأييدهم، ولكنه لم يحسب حسابا او احتاط للظروف ، فقد رشى بعض عبيده ، وقتلوه غدرا ، ولم ينس اخوه الذي تولى الامور بعده اساءة البربر لعائلته بقتل اخيه فاظهر النفور منهم مؤثرا الاعتماد على اهل البلد . وتحول الصراع بين البربر والعرب الى صراع بين العائلة الحمودية نفسها واخذ افرادها يتسابقون لكسب المؤيدين ، وكانوا دائما يجدون ضالتهم في البربر هؤلاء الذين ضاعوا وسط هذه الفوضى فلم يعودوا يفكرون في تصرفاتهم فسيوفهم في خدمة من يطلبها ، فهم مرة في خدمة القاسم ومرة يبايعون يحيى بن علي ، ورأى اهل قرطبة انهم تحملوا اكثر مما يجب من هؤلاء مجتمعين ووجدوا العون من اهل اشبيلية ، الذين لا يقلون كرها للبربر وآل حمود ، فعندما وصلت الانباء الى اشبيلية بأن اهل قرطبة قد انتقموا من البربر واخذوا منهم بثارهم وطردوا آل حمود ، اغلقوا ابواب المدينة بوجه القاسم الهارب ، معلنين انهم سيتولون شؤونهم بأنفسهم ، وخولوا ثلاثة من رؤسائهم لادارة امور اشبيلية وعلى راس هؤلاء اسماعيل بن عباد القاضي وآثر يحيى بن علي بن حمود بعد ان فشل في كسب رضا اهل قرطبة الناقمين عليه ان يرحل هو والبربر الذين آثروا ملازمته ويستقر في مالقة .

وازاء هذا الوضع المرتبك الذي اصبح فيه اهل قرطبة ، وبعد هذه الفترة العصيبة استقر راي الجماعة فيها ـ دون مشاورة بقية الولايات الاندلسية ـ حيث لم يكن هناك متسع من الوقت للتشاور ، وحيث ان الحوادث اخذت تتلاحق بسرعة، وبدون تردد قرر اهل قرطبة رد الامر الى بني امية، لعلهم يعيدون الهدوء والاستقرار ، وفي الواقع فان هذه العائلة قد انتهى امرها ولم يعد فيها الرجل الذي يصلح لهذه الظروف او يستطيع اعادة هيبة القانون الى الجزيرة الممزقة وحتى لو وجد هذا الرجل فمن المؤكد انه سوف يفكر كثيرا قبل ان يوافق على تحمل هذه المسؤولية ، ولكنهم على استعداد لاقحام انفسهم وسط المعمعة ، وليجربوا حظهم ـ مع علمهم المسبق بان الفشل سوف يكون مصيرهم ، ومن ناحية اخرى كان الكثير من اهل قرطبة على استعداد لقبول اي شخص يكون مستعد لان يكون على راس السلطة دون النظر الى مقدرته او مقوماته الشخصية ولكن يزكيه فقط انتسابه الى البيت المالك ، واثبتت الحوادث لسكان المدينة ضآلة تفكيرهم وعدم ترويهم . وانهم كانوا مخطئين بمجرد التفكير في اعادة الامر لآل امية ، فالخلفاء الذين تعاقبوا على دست الحكم بعد طرد آل حمود وهم المستظهر بالله ، والمستكفي ، وآخرهم المعتمد

بالله ، لم يكونوا فقط لا يستحقون هذه الثقة بل ان مجيئهم زاد الامر تعقيدا ، مما اوحى لاهل قرطبة ان الخلافة اصبحت عبئا ثقيلا وانهم من الان فصاعدا عليهم ان يفكروا بمصير مدينتهم فقط ولتتصرف الولايات الباقية حسبما يحلوا لها وما تراه مناسبا، لان قرطبة لم تعد مؤهلة لادارة امور البلاد وفوض اهل قرطبة امرهم الى شيوخهم الذين اصدروا مرسوما اعلنوا فيه زوال رسوم الخلافة نهائيا ، وتضمن المنشور الرغبة في اللايبقى احد من آل امية فى المدينة ، حتى لا يتيحو لهم الفرصة بالتفكير للعودة ثانية (ونودي في الاسواق والارباض الا يبقى في قرطبة احد من بني امية ولا يكتنفهم احد) وكان تاريخ هذا المنشور الذي اعلن انتهاء حكم هذه الاسرة الى الابد « ١٣ ذي القعدة ٤٢٢ هـ . ٣٠ نوفمبر ١٠٣١م » وسرعان ما استجابت بقية المدن الكبيرة لدعوة قرطبة التي كانوا بلا ادنى شك ينتظرونها وتناهب الزعماء والمتنفذون البلاد ، وتمزق اهل الاندلس فرقا (وتغلب في كل جهة متغلب وقسموا القاب الخلافة) واصبحت كل مدينة مسؤولة عن نفسها وزادت المشاكل تعقيدا فالبربر اضحوا قطاع طرق لاهم لهم سوى السلب والنهب ، وسقطت بعض المدن في ايديهم وهجرت القرى ، واصبحت الطرق لا يأمن الناس السير فيها.

وهذا المشهد المؤسف ساهم فيه كل اطراف المجتمع الاندلسي وكل طبقاتهم فالارستقراطية ، ساهمت فى تعميق الهوة بين الحكام والشعب لمنافعها الخاصة وقد حققت اغراضها ، والبربر بعنادهم وتصلبهم وحقدهم كانت لهم اليد الطولى في وصول البلاد الى هذه الحالة ، وآل امية يدفعهم املهم فى اعادة امجاد بيتهم الزائلة كانوا وبالا على الناس وعلى نفسهم ، وحتى الطبقة العامة لم تسلم من المسؤولية وذلك لسرعة انقيادها لكل دعي ، يوهمهم بالوعود الخلابة واحيانا بالاموال ، ولم يستفد من هذا المصير التعس الذي آلت اليه البلاد الا القوى المسيحية المتربصة والتي استطاعت خلال هذه الفترة ان تستولي على بعض الاراضي وتضمها اليها ....

لقد كان للتطورات التي مرت بها شبه الجزيرة الاسبانية بقسميها ، المسيحي ، والاسلامي اكبر الاثر على مستقبل الجزيرة لعشرات السنين ، ففي الوقت الذي تناثرت فيه اشلاء الاندلس ، كانت نفس الظروف تمر على اسبانيا النصرانية فقد نمت دولة متكاملة في الشمال ، من الفلول التي تركها المسلمون عند فتح الاندلس والذين حصروا في ولاية اشتوريا ، واهملهم المسلمون لعدم اهميتهم او وجود اي خطر منهم ، كانت هذه الفلول هي النواة التي تجمعت حولها جهود المسيحيين ، واسسوا بعض الممالك الصغيرة واتحدت تحت قيادة سانشو الكبير .

ولما مات « سانشو الكبير » ، قسم المملكة بين ابنائه الاربعة ، فكان نصيب فرناندوقشتالة وليون، وهو الذي قاد حروب الاسترداد ضد المسلمين ، واعطيت بقية اقسام المملكة الى اولاد سانشو وهم غرسيه ورامير و وكونزالو . ولكن على الرغم من ان اسبانيا المسيحية قد قسمت الى ولايات كما في الجنوب الا انها بقيت اقوى من دويلات اسبانيا الاسلامية ، التي راحت بعد تقسيمها تخوض حروبا محلية لا داعي لها الا الرغبة في ضم بعضها البعض ، والشك المتبادل بين امرائهم وخوفهم من بعضهم البعض ، فانشغلوا اثناء حروبهم هذه عن الخطر الذي بدا ينمو ويتزايد وهم غافلون عنه ، ولم يستطع ـ او يرغب ـ اي امير مسلم ان يقوم بعمل ما ضد هذه القوى المعادية فى الشمال ، لان هم كل واحد من هؤلاء كان منحصرا في ولايته وتثبيت ملكه ثم مراقبة جيرانه المسلمين ، ونتيجة لهذا التصرف المزري انقلبت موازين القوى ، فبعد ان كانت قرطبة في عهد الخلفاء الامويين المتاخرين ، هي التي تسير سياسة الجزيرة ، وبعد ان كان امراء الدويلات المسيحية يفكرون على الدوام فى كيفية تفادي غزوات المنصور التي لم تنقطع عنهم سنة واحدة ، اصبح الحال بالعكس ، فهذه القوة ضعفت ، وهذه الوحدة تمزقت ، مما اتاح الفرصة للدويلات النصرانية ان تبدأ حركة الاسترداد ولتصبح الدويلات الاسلامية في موقف الدفاع عن النفس ، وقد ارتبطت هذه الحركة باسم فرناندز الاول ملك قشتالة وليون وهو الذي تعرفه الرواية العربية باسم ـ فرذلند .

ان التاثير السيء على الوضع فى الاندلس لم يكن نتيجة لتقاسمها بين امرائها فقط او اختفاء القيادة الموحدة ، ولكن كان الامر اخطر من ذلك فقد اختفى المثل الاندلسي الاعلى الذي قادها لمئات السنين ولو ان الامر توقف عند هذا الحد ، كان من المحتمل ان ينتبه الامراء الى اوضاعهم المزرية وربما يتحدون في يوم من الايام ويضعون مصلحة الامة فوق مصالحهم ، ولكنهم تمادوا في غيهم ، وحشدوا جيوشهم لا لمواجهة العدو ولكن لمواجهة بعضهم ، وكنتيجة منطقية لهذا ، اخذت القوة الرائعة تضعف والحدود تنحسر وفى الجهة الثانية تنمو قوى واخذت تستعد وتتهيأ لاسترداد اراضى الاجداد (ولم يزل ثغر الاندلس يضعف ، والعدو يقوى ، والفتنة بين امراء الاندلس تسعر الى ان كلب العدو على جميعهم ، ومل من اخذ الجزية ،

ولم يقنع الا باخذ البلاد) . في كثير من فترات الاضطراب التي تمر بها الامم وتعصف بها ريح الفرقة يصبح الحكام في فوضى من امرهم اذ لاهم لهم الا الاحتفاظ بما حصلوا عليه حتى ان تفكيرهم للمستقبل او حتى يومهم الثاني يكاد يكون مشلولا ، فالامراء المسلمون استسلموا دون تفكير للخطة الخبيثة التي سار عليها فرنادزو ، عندما بدأ يفرض عليهم الجزية وكان غرضه تصفية اموالهم وارباك امورهم الاقتصادية التي تؤثر على كافة مقومات الحياة واولها الناحية العسكرية ، وبعد ان رأى ان غرضه الاول من هذه السياسة قد استنفذ تماما ، بدأ بمطالبة هؤلاء الامراء بتسليمه القلاع والحصون واستمعوا اليه صاغرين لعله ـ على حد ظنهم ـ يكتفي ثم يروحون غارقين في ملذاتهم ولهوهم ، والانشغال بامور الادب ، وربما قضوا بعض اوقاتهم . وهم في حالتهم هذه ـ في كيفية تدبير المؤامرات للاستيلاء على املاك جيرانهم لعلهم يعوضون ما ضاع منهم .

ولعل الشعب الاندلسي وهو الذي كان يعيش هذه المأساة بكل جوارحه ويشعر ان قادته منشغلين عنه ، وقد شعر الفرد الاندلسي عندما رأى خيل فرنادو تطأ ارضه حتى وصلت نهر تاجه وان حكامه تسارعوا في دفع الجزية لفرنادو شعر اي خسارة اصابته بسقوط الدولة الاموية التي لم يحاول اهل الاندلس لانغماسهم بالمؤامرات والدسائس محاولة الحفاظ عليها حتى اعتبروا انهم ساهموا ولو بدون قصد بوصول الاندلس الى هذا الوضع المؤسف حيث زالت رسوم الخلافة وتفرقوا شيعا . ووسط هذا الجو من التناقضات كانت الاندلس تعيش ، وقد زاد البربر هذا الوضع سوءا فقد كان خطر هؤلاء اشد وانكى من خطر الدويلات المسيحية ، فهؤلاء يكونون نسبة عالية من المجتمع الاندلسي ، وقد تركزوا فيه لسنوات طويلة وقاموا بادوار خطيرة في تاريخ هذه الامة ، ولم يحاولوا او يحاول العرب العيش بسلام والعمل سوية للحفاظ على البلاد ، بل انهم تعاموا عن هذه الحقيقة ولم يحتفظوا في مخيلتهم الا بذكرى الحروب الاهلية ، والمآسي التي مروا بها والتي يلقون اللوم فيها على العرب فهم قد شعروا ـ دون مراعاة مصلحة الامة ـ ان دورهم الآن قد حان للانتقام من هؤلاء الذين اذاقوهم سوء العذاب ، وليس احسن من هذه الفرصة ، فقد تفرق العرب ، واغلقوا ابواب مدنهم على انفسهم ولم يلتفت احد لنجدة جاره ، ولا شك ان اخبار هذا الوضع قد وصلت الى اسماع فرنادو فلم ينتظر الاستغلال هذه الفرصة الذهبية .

ان المسلمين في هذه الفترة كانت تنقصهم الحماسة الدينية للدفاع عن تراث الاسلام هذه الحماسة والحمية التي كانت قد بدأت تنمو لدى المسيحيين ، وراح ملوكهم مجتمعين يبثونها فيهم ويثيرون عواطفهم للدفاع عن قضيتهم المقدسة ، وقد ظن المسلمون ان النصارى قد تركوهم لشأنهم عندما انشغلوا فترة تزيد عن الخمسين عاما ، ولم يحاول امراء الاندلس استغلال هذه الفرصة في لم شملهم فقد انشغلت اسبانيا النصرانية بمنازعاتها الداخلية ، ولكن « فرنادو » سرعان ما عاد الى سياسته ضد الاندلس مغتنما هذه الفترة بالاستيلاء على مدينتي بازو ولاميجو من يد « المظفر بن الافطس » ووصل نفوذه الى نهر دورو وقد ساهمت الكنيسة الرومانية في بث الروح القومية لدى مواطنيها ، بعد حركة « الاصلاح الكلونية » ، واصبح لها نفوذ كبير في اوربا الغربية ، وراحت تشجع القوى المسيحية لشن الحرب المقدسة في الشرق والغرب .

ولم يحاول الامراء المسلمون حتى ان يحذوا حذوا الممالك النصرانية في محاولة الاتحاد ، ومجابهة العدو الشرس ، بل انهم اخذوا يسلكون مسلكا وعرا خطرا ـ هذا المسلك الذي جر عليهم الويلات وهو الاستعانة بملوك نصارى لضرب اخوانهم والاستيلاء على ولاياتهم وبلا تردد سارع ملوك قشتالة الى تقديم هذه المساعدات لا حبا فيهم ـ كما تصور هؤلاء الامراء ـ ولكن لامتصاص قوتهم دون ان يخسروا شيئا ، وما عليهم الا التقدم لكسب الغنائم ، وقد استعمل فرناذو الاول هذه السياسة بذكاء ودهاء لتنفيذ مشروعه البعيد المدى في استرداد الاندلس كلها ، فهو في الوقت الذي كان يساعد عبدالعزيز بن ابي عامر ضد مجاهد ، كانت قواته الاخرى تساعد ابن « هود » لمحاربة ابن ذي النون ، وهو في نفس الوقت يوجه الحملات لغزو اراضي اشبيلية وبطليوس ، وهكذا لم ينج منه اي امير مسلم .

ولم يكن فرنادو يهتم بالمشاعر الانسانية ولا يردعه اي وازع ديني عن ارتكاب ابشع الجرائم ضد المناطق التي تتعرض لاحتلاله . اضف الى ذلك تلك السياسة الفعالة التي سار عليها وهي اسكان الجماعات المسيحية في المدن التي يحتلها حيث يشكل هؤلاء ركيزة ضمان لعدم امكانية الحكام المسلمين في استردادها ثانية .

لقد كان تشجيع بعض امراء الاندلس لفرناندو لا حدود له فلم يحاول هؤلاء ومنهم ابن الافطس ،

الاستنجاد باخوانه الاخرين ـ لانه كان على ثقة من انه لن يلاقي اذنا صاغية ، فلم يحاول الدخول في حرب يعلم نتيجتها مقدما او حتى الدفاع عن املاكه ضد غزوات النصارى ، الذين كان قوادهم ـ بلا ادنى ريب يتباهون بانهم لا يقهرون وانهم قد القوا الرعب في قلوب اعدائهم ، وان مجرد سماع وقع حوافر خيلهم فان قوات المسلمين ستولى هاربة، فعند حصارهم لقلمرية تلك المدينة الباسلة والتي كانت تعد من اعظم مدن البرتغال والتي اقيمت الافراح والمهرجانات في قرطبة استقبالا للقائد المظفر « الحاجب المنصور » عندما افتتحها قبل ذلك بتسعين عاما ، سلمت هذه المدينة فريسة سهلة لفرناندو بعد حصارها ومنازلتها ، ولم يكد ينتهي من اخذ قلمرية حتى اخذت قواته تحاصر « بريشتر » وتستولي عليها وفرضت الجزية السنوية على ابن الافطس يؤديها سنويا ، والا فان جيوش الملك النصراني سوف لا توقف زحفها ، هذه الجزية على الرغم من ان الامراء المسلمين كانوا امناء بل تواقين لادائها بانتظام ، ولم تكن الاتفاقيات الموقعة بشانها تحترم ولا المواثيق تلتزم من جانب النصارى ، الا لفترة ربما كانت تستغل لتقوية النفس ولاراحة الجيوش لتعاود الهجوم من جديد مستفيدة من هذه الاموال التي يقدمها لهم خصومهم لقد اضاع الامراء المسلمون كل الفرص التي اتيحت لهم لردع عدوهم . عندما نشبت الحرب الاهلية في الممالك المسيحية ، بعد وفاة فرناندو وتقسيمه املاكه بين ابنائه الثلاثة. لقد فقد هؤلاء الامراء القوة والقدرة على التحرك ، عندما تعرضت هذه المملكة المؤسسة حديثا الى هزة عنيفة وفترة ضعف كان من الممكن استغلالها احسن استغلال من قبل المسلمين ، ونهضت هذه المملكة من عثرتها ، اذ انه بعد حرب قصيرة بين«الفونسو» حيث هزم « سانشو » وضمت املاكه الى اخيه . ولم يكن الفونسو يقل حبا ورغبة في استمرار الحروب ضد المسلمين ، هؤلاء الذين كان في يوم من الايام لاجئا عند بعضهم ، ولم يحاول ان يحفظ الجميل لهم وهو ما تقضي به اقل مبادىء الاخلاق ، بل ان شراسة هذا الملك وحبه لسفك الدماء ، لم يكن له حدود ، هذه الصفات ، جعلت حركة الاسترداد المسيحية تلصق به اكثر من والده .

وتعد الفترة التي جاء فيها الفونسو للحكم من اخطر مراحل الصراع بين المسيحية والاسلام في اسبانيا ، فالانتصارات التي احرزها ملوك قشتالة وليون كانت تعطي دما جديدا لهذه القوى ، وتعطيها الثقة في نفسها اكثر فاكثر ، يقابل ذلك ضعف مستمر وتدهور في الاندلس الاسلامية ، لقد كانت طلبات الفونسو من هؤلاء الامراء للتنازل عن القلاع والحصون لا تنتهي طالما هؤلاء لا يمتنعون عن اجابته لطلباته والرضوخ لتهديده المستمر ، منشغلين بنفس الوقت ببناء الحصون والقلاع لا للدفاع ضد هذا العدو انما ـ نتيجة لحذرهم وخوفهم من بعضهم البعض ـ لدفع الاخطار التي كانوا يتوقعونها من جيرانهم المسلمين ، معطين الفرصة للفونسو في ان يتصور ان احلامه واحلام ابائه في استرداد اسبانيا كلها قد باتت وشيكة الوقوع ، فكان لا يكف عن جمع المتطوعين من اوربا انتظارا للحظة الحاسمة، باذلا من الاموال التي تكدست لديه من الجزية والهدايا التي كانت لا تنقطع عنه من امراء الطوائف المسلمين .

والفونسو بسياسته هذه لم يأت بشيء جديد، في حروبه مع المسلمين اللهم الا اخفاء روح التعصب الديني الذي كان واضحا في حروب اسلافه ، فتدخل الان مبدأ التوسع السياسي ، وقد سار الفونسو في حروبه على خطوات رسمت له من قبل ، ولم يفته ان سياسة الارهاب المدعم بالقسوة وحصار المدن انما هي سياسة فعالة كانت تأتي بافضل النتائج ، وقد اوحت هذه الروح الانهزامية لدى الامراء المسلمين له ان يخاطبهم بلغة السيد المطاع ، وقد دعى نفسه بالامبراطور . وكانت هذه الفترة مجالا لظهور بعض الشخصيات الحربية التي كان لها دور هام في هذه الحروب ولعل اهمها واشهرها هو (السيد) الكيمبيادور رودريكو دياز دي بيبار ، وقد احيطت هذه الشخصية بكثير من الغموض ، وحيكت حولها الاساطير ، وصورته الاحداث بصورة البطل المدافع عن المسيحية ، والذي لم يكن في الحقيقة الا مغامرا شجاعا ، غلبت عليه اطماعه الشخصية ، فلم يكن يمانع عن بيع خدماته للمسلمين والمسيحيين على السواء ، ولا تزال الكنيسة تنظر اليه كبطل قومي ، حتى ان المبالغة في تصوير هذا الفارس الى حد التقديس ، قد اوحت الى كثير من المفكرين بأن يشككوا في وجوده ، وعدت الملاحم التي قيل أنها كتبت عن اعماله البطولية التي كانت تتغنى بشجاعة الابطال وبمرور الزمن تتحول هذه المدائح الى ما يشبه الخيال والخرافة ، فان المصادر الاسلامية القديمة ـ وهي تعرف ان السيد عدوها الاول ـ قد ساهمت مساهمة فعالة في سرد احداث حياته ومغامراته ، وكان هؤلاء دقيقين كل الدقة في تسجيل وقائع حروبه ـ وهذه المصادر يمكن الاستناد عليها في معرفة الجانب الحقيقي لحياة هذا البطل المغامر دون الاغراق في الخيال .

وكان هذا الفارس القشتالي يدعى (السيد)

تشريفا واحتراما وهي نفس الكلمة العربية التي كانت تطلق على الرجال المهمين في ذلك العصر .

ولقد خدمت الظروف « الكيمبيادور » ، حيث اختار اضعف المناطق في الاندلس لاظهار قوته وشجاعته ، فان التفكك السياسي الذي ساد اسبانيا الاسلامية و المسيحية على السواء ، حيث كان للمغامرة الفردية تقدير لدى الناس ، لان هذا العصر كان مملوء بالمغامرين الذين يبنون امجادهم على قوة ابدانهم وسيوفهم والذين كانوا غالبا ما يخرجون عن سلطة اي حكومة لمجرد تحديها ، والظروف الاجتماعية غير العادية التي سادت تلك العهود ، حيث كانت الحكومات تعتبر البسالة الشخصية خير مؤهل للارتقاء والتقدم ، كل هذه الظروف اتاحت « للسيد » الظهور بمظهر الرجل الذي لا يقهر والذي يخطب وده الملوك والامراء .

ان « السيد » لم يكن فى الواقع الا احد الخارجين عن القانون ، واذا اردنا الدقة ، فانه لم يكن الا قاطع طريق التف حوله جماعات من المجرمين والهاربين الذين كانوا يقدمون خدماتهم لكل من يريدها بمجرد ان يدفع الثمن ، دون النظر الى الجنسية او الدين وعندما طرد « السيد » من بلاط قشتالة من قبل « الفونسو السادس » لم يتوان عن عرض خدماته على « المقتدر » امير سرقسطة ، فالتحق به هو واتباعه ، وكانت هذه الظاهرة وهي استخدام مرتزقة اجانب شيئا مألوفا بالنسبة لامراء اسبانيا ، وقد رحب بهم امير سرقسطة الذي كان في حروب مستمرة مع جيرانه وادرج السيد وجماعته ضمن جيش سرقسطة ان هذه الحروب المستمرة بين المسلمين والمسيحيين لا يمكننا باي حال من الاحوا ان ننكر العامل الديني فيها ، فان الكنيسة قد ساهمت مساهمة فعالة فى استمرارها وتشجيعها للمحاربين ، الذين كانوا يوهمون بانهم انما يحاربون اعداء لهم اغتصبوا اراضيهم ، وكثيرا ما كان الرهبان والقسة يشتركون مع الجنود في حصار المدن لشحذ هممهم ولقد كانت الانتصارات التي كانت يحرزها المسيحيون الاخرون في الشرق خير مشجع لهؤلاء ، الذين كانوا يرون ان حربهم ضد المسلمين فى الاندلس هي ايضا حرب صليبية ترعاها الكنيسة .

اما في الجانب الاخر ـ الاسلامي ـ ففي فترة خمسين عاما مضت على وفاة المنصور بن ابي عامر انقلبت الاوضاع مع انهم لايزالون الكثرة الغالبة وخسروا كثيرا من مدنهم وقلاعهم ، ولعل قول احد المؤرخين المحدثين يفسر بصورة واضحة هذه الحالة المزرية التي آلت اليها الاندلس فان جهود المنصور كانت جهود فرد قاد امة وليس جهود امة خلقت قائدا ولعل ما يؤيد ذلك ان المسلمين بعد سقوط الدولة العامرية ، اصبحوا عاجزين عن مواجهة الافرنج وصد غاراتهم واصبحوا وكأنهم لا يستطيعون الحرب اطلاقا .

ان اكثر الناس اعتدالا وتحفظا لا يستطيع ـ او يتجرأ ـ ان يبرىء الامراء المسلمين من مسؤليتهم ازاء ما وصلت اليه اوضاع شبه الجزيرة الاسلامية من سوء ، ولعل حاكما غير الفونسو كان يمكن ان يكون اشد وطاة ، على هؤلاء الامراء ، الذي يحتار المرء عن وصف وتفسير تصرفاتهم ، لقد كان واحد من هؤلاء يفخر دائما بقرد قدمه اليه الفونسو تعويضا او كرد على هدية هذا الامير التي بلغ ثمنها مائة الف دينار .

والآن وقد اتت سياسة الفونسو باستصفاء اموال هؤلاء الامراء بنتائجها المرجوة وبدأو كأنه سوف لا ينتهي من مطالبة التي كان يرهق بها هؤلاء المذعورين (وكانت طوائف الروم مدة حلول الطوائف قد كلب دائهم ، فلا طفوهم بالاحتيال واستنزفوهم بالاموال ، فلم يزل دائهم الاذعان ، والانقياد ، ودابت النصارى التسلط والعناد) .

لقد ايقن كثير من افراد المجتمع الاسلامي انه بات من الصعب البقاء او امكانية استمرار العيش فى هذا الوضع السيء المتدهور ، وقد ظهرت بعض الدعوات ، لترك البلد ، وهذا ناتج عن شعور هؤلاء الناس بفقدان الحماية ، وعدم قدرة حكامهم على توفيرها لهم ، ولعل ابن الغسال يعبر عن شعور كثير من مواطنيه في ذلك الوقت حيث قال : ـ

يا أهل اندلس شدوا رحالكم
فما المقام بها الا من الغلط

ولكن ومع هذه الظروف القاسية ، فانهم كانوا يرون ان الهجرة خطوة صعب تنفيذها على نفوسهم ، ولعلهم ، كانوا يعيشون على امل انه لابد ان يأتي اليوم الذي يستعيدون فيه قوتهم ومكانتهم ويأخذون زمام المبادرة ثانية ، ولعلهم فكروا بالاستعانة بعرب افريقية ، ولكنهم خافوا ان ينالهم من هؤلاء اكثر مما نالهم من نصارى اسبانيا .

لم تكن سياسة الارهاب واشهار الحرب ، هي وحدها التي اتبعها الفونسو اتجاه امراء الاندلس ، فلكي يعمل على تفرقتهم وعدم اعطائهم الفرصة للاتحاد ، اوحى لبعضهم انه يتعاطف معهم خدمة لقضيتهم ولحمايتهم من اطماع جيرانهم الاخرين ، وان الخير لهم ان يعقدوا معه الاحلاف ، ضمانا لمصلحتهم ، وقد انخدع بعض هؤلاء بهذا العرض ،

فتسابقوا للارتماء باحضانه ، ظنا منهم انهم سوف يحصلون على مساعدته ، غير مبالغين بما ستجره عليهم تصرفاتهم هذه ، بل انهم لم يتورعوا عن امداده بالجنود ، لكي يشتركوا في حصار المدن الاسلامية ، مثلما فعلت بعض قوات ابن ذي النون ، عندما حاصرت قرطبة ، التي دافع اهلها ببسالة تحت امرة قائدهم سراج الدولة بن المعتمد بن عباد والذي سقط قتيلا وهو يدافع عن مدينته .

لقد كانت الاخطار الوهمية هي الحجة التي لجأ اليها الفونسو للحصول على مزيد من الاموال، فصاحب غرناطة بغبائه وجبنه المعهودين ، اسرع دون تروي الى دفع جزية سنوية مقدارها عشرة آلاف مثقال ذهبا ، لكي يحول دون عقد حلف ضده بين المعتمد والفونسو ، مفضلا هذه الفدية على ان تقع مدينته بيد ابن عباد ، اذا ما حصل على مساعدة الفونسو (لان ذلك خير من هلاك العباد وفساد البلاد اذ لم تكن بنا القدرة على ملاقاته ومكابرته ، ولا وجدنا من سلاطين الاندلس عونا) فاي غباء وخنوع كان يسير هؤلاء الحكام الذين فقدوا القدرة على التفكير في الحيل التي اوقعهم بها الفونسو

والان وقد جاء الوقت الذي كان يترقبه الفونسو ، بعد ان ايقن انه ليس هناك قوة تستطيع مجابهته (حتى ايقن النصارى بضعف المنن ، وقويت اطماعهم بافتتاح المدن ، واضطرمت في كل جهة نارهم ، ورويت من دماء المسلمين اسنتهم وشفارهم ، ومن اخطاه القتل ، فانما هو بأيديهم سبايا ولم يزل التخاذل يتزايد والتدابر يتساند) .

وقد توج الفونسو مشاريعه باستيلائه على طليطلة عاصمة القوط القديمة ، وعد هذا الحدث من اهم احداث التاريخ في العصور الوسطى لاسبانية وبقدر ما كان له من رنة الفرح والابتهاج في بلاد النصارى قابلة يأس وحزن خلف الحسرات في نفوس المسلمين ، وخاصة اهلها الذين دافعوا لوحدهم عن عن مدينتهم مدة سبع سنين حاصرهم فيها العدو متحدين كل ما اتبعه معهم من تجويع ونسف الزروع، حتى اخذت قلاعها المحيطة بها تسقط الواحدة بعد الاخرى ، وفي السنة السابعة لهذه الحوادث ، بعد ان تأكد ان المدينة قد استنفذت قوتها وامكانياتها الدفاعية ، ولما ايقن صاحبها القادر باستحالة حصوله على العون من اخوانه امراء الاندلس، وحتى المساعدة التي بعثها له صاحب بطليوس ، لم تغن شيئا ، ولم تجنبه المصير المحتوم آثر ان يسلمها صلحا بعد ان ضمن سلامة مواطنيه واموالهم ، وان تترك لهم الحرية في البقاء او الهجرة وان يبقى مسجدها الجامع ، ولم يمانع الفونسو باعطاء هذه الضمانات فدخلها في اليوم السابع والعشرين من محرم سنة ثمان وسبعين واربعمائة ٢٥ مايو ١٠٨٥ وقد حز في نفوس اهلها علاوة على ما لاقوه من آلام الحصار والجوع والحرب ، ان يبعث بعض امراء الطوائف رسلهم لتقديم التهاني للفونسو على ما اصابه من نصر وظفر . والآن وقد جلس الفونسو ، في قصره بطليطلة فرحا بانه اعاد الى ابناء قومه عاصمة القوط وقد شعر بما اصبح له من الهيبة في نفوس امراء المسلمين والمسيحين على السواء ، شعر بانه قد آن الاوان بان يلقب نفسه بالامبراطور ولم يقف عند اسوار طليطلة بل انه ايقن ان الطريق اصبح مفتوحا امامه لكي تسقط بسهولة بقية المدن الاسلامية ، فاستولى على كل املاك بني ذي النون وضم الرقعة الممتدة من وادي الحجارة حتى طلبيرة واعمال شنتمرية كلها .

ولقد عد هذا الحادث ـ استيلاء الفونسو على طليطلة اهم حادث في شبه الجزيرة منذ سنة ٧١١ هـ وقد ايقن الفونسو ـ وهو في قمة انتصاره ـ ان دور المدن الكبيرة . الاخرى كاشبيلية وقرطبة وغرناطة قد جاء واستمرت غاراته على هذه المقاطعات واصبح مصير هذه المدن في قبضة القدر ، وقد ارجع رجال الدين ان ما اصابهم او يصيبهم في المستقبل انما هو عقاب من الله . . . لان زعماؤهم قد اهملوا امور دينهم وشؤون رعيتهم وانغمسوا في ملذات الدنيا .

لا بد ان امراء الاندلس الان قد ايقنوا ـ ولو بعد فوات الاوان ـ انهم ملاقون نفس مصير طليطلة، وادركوا متأخرين انهم قد قصروا في حق دينهم وامتهم ومواطنيهم .

ولعل ابن عباد وهو اكثر امراء الجزيرة املاكا، قد ادرك مدى مسؤوليته في هذه الحوادث ، وايقن انه قد ماشى الفونسو اكثر مما يجب ، ولعل هذه السقطة من ابن عباد ، من اخطر اخطائه السياسية، والتي جعلته يفيق من اغفائه ، عندما ايقظه رسل الفونسو ، ناقلين اليه طلب سيدهم بتسليم بعض الحصون والقلاع التي كانت تمهد له الاستيلاء على قرطبة ، التي يرى (الفونسو) ان العناية الالهية قد وكلته باعادتها الى حظيرة النصرانية ، وهذا ما كشفت عنه تصريحاته المستمرة ، (انني لن ارتاح، الا اذا عادت الي قرطبة وانفذ اجراس كاتدرائية سانتياجو التي اصبحت مصابيح في الجامع) .

وكانت رسائله تحمل طابع التهديد للمعتمد مذكرا اياه على الدوام بمصير طليطلة ولم ينس ان يوقع

رسائله بلقبه الجديد ـ امبراطور الديانتين ـ ولكن المعتمد راى ان الفونسو ، قد تعدى كل حدود اللياقة ، وطلب من رسول الفونسو البارهاينس ان يعود ليخبر سيده ان كل طلباته مرفوضة . ورأى انه لابد من ان يقوم بعمل بعيد الفونسو صوابه ، فعندما وصل رسل الفونسو كعادتهم لاستلام الجزية ، اساء اليهودي ابن شاليب التصرف مما اغاظ المعتمد وفقد هذا اليهودي التعس حياته جراء وقاحته وجراته .

ولم يكن المعتمد يجهل ما لهذا العمل من خطورة ، ونتائج لا يعلم الا الله مداها فقد وصلته الاخبار بان الفونسو عندما علم بقتل رسوله ، ثار غضبه ، واقسم بان يكون انتقامه رهيبا (لا ارفع يدي عنه وساحشد من الروم عدد شعر راسي واصل بهم الزقاق) .

ولم يبال ابن عباد فقد صمم ان يمضي بما قرره ، حيث ان الضعف اصبح غير مجد . في موقف كهذا ، وهو لا يدفع شرا ، وكان جوابه حاسما على تهديدات ملك قشتالة (قرات كتابك ، وفهمت خيلاءك واعجابك ، وسانظر في مراوح من الجلود اللمطية في ايدي الجيوش المربطية تروح منك لا عنك انشاءالله) .

ولم يكن الفونسو يتوقع هذه اللهجة ولا هذا الرد على رسالته التي يعيشها عندما عسكر بجيشه قبالة قصر ابن عباد .

لقد ادرك المعتمد اي منزلق خطر انحدر اليه، ولعل امراء الاندلس قد تعاطفوا مع زعيمهم المعتمد، ولكن انى لهم القوة لردع المعتدي الوقح ، وهم على ما هم عليه من الضعف والتفرق ، اذ لا بد لهم اذا ما ارادو السير في هذا (الطريق وهو مما لا بد لهم منه ، ان يلتمسوا المساعدة من اخوانهم فى العدوة حيث كانت انباء انتصارات المرابطين تصل اسماعهم . ولم تكن الاخطار التي واجهتها اندلس الطوائف ، مقتصرة على اعدائها التقليدين ، نصارى الشمال ، وانما كانت هناك ، اخطار اشد واعظم ، فالحروب التي نشبت نتيجة اطماع هؤلاء الامراء في اراضى بعضهم ، كان لها تاثيرها السيء وهو اشد تخريبا من حروب الفونسو . ولم يقتصر هذا الامر على الحروب من اجل الغنائم ، وانما المسالة تعدت ذلك ، وتجاوزت حدود المعقول ونعني بذلك الاستعانة بالفونسو والممالك المسيحية الاخرى ، فالفونسو لم يكن يمانع عن عقد الاحلاف مع بعض هؤلاء الامراء ، وكان بذلك يحقق عدة مكاسب فهو يمنع هؤلاء بحكم تحالفه معهم عن مساعدة بقية الامراء ، وبالتالي يبقى على الاندلس ، من وراء اثارة الشكوك بين امرائها ، مفككة ، فقد كان المأمون حاكم طليطلة فخورا ، ولا يتورع عن الاعتداء على جيرانه ، معتمدا على الحلف القائم بينه وبين ملك قشتالة ، وكانت اطماعه لاتخفى على أحد بعاصمة الخلافة القديمة ، وغيرها من مدن شرق الاندلس ، وكانت جيوش المسلمين تضم عددا من الكتائب المسيحية ، فامير سرقسطة كان قويا بمساندة « السيد » وكتائبه له ، وخاض هؤلاء اكثر حروب امير سرقسطة مع جيرانه ولم يكن هذا الشيء معيبا أويؤاخذ عليه، وكان المرتزقة الاجانب يقابلون بكل حفاوة من قبل هؤلاء الامراء الذين كانوا يعجبون بشجاعتهم وقوة سيوفهم التي لا تقهر وحتى المسيحيين لم يكونوا يانفوا من خدمة امراء الاندلس المسلمين ، بل انه السيد حارب عدة مرات ضد قشتالة وامارة برشلونة لصالح امير سرقسطة ، ولم يكن للوازع الديني أي قيمة في اعماله الحربية ، فلم يكن الكمبيادور / اذ كان ذلك يرضى سيده / يتوانى من ان يرتكب ابشع الجرائم ضد الاسرى والعاجزين والمدن ولم يكن هناك فرق لديه سواء كانت الضحية مسيحيا او مسلما ، فهو يهاجم السفن المسيحية ويقتل جنود قشتالة بنفس الوحشية التي يهدم بها المدن الاسلامية ويقتل المحاربين فيها ، ومن الغريب ان مسلمي سرقسطة كانوا يستقبلون هذا المرتزق بكل آيات التعظيم والهتافات كلما عاد من احدىغزواته .

انه من غير الممكن ان نستثني اي امير من امراء الطوائف من هذه السياسة الرعناء .

فلم يعودوا يشعرون بأستنزاف قواهم وضعف مقاومتهم ، طالما هم مايزالون علىعروشهم واستمروا فى التنازل عن القلاع والحصون ، مقابل الحصول على مساعدة او عقد حلف مع امراء الدول المسيحية.

ولم تكن للمعاهدات التي تعقد بين هؤلاء الامراء لمحاولة انهاء حالة الحرب بينهم لتستمر مدة طويلة ، فانها تلغي وتخرق باسرع مما تعقد به وتدهورت الاوضاع الاقتصادية نتيجة لعدم الاستقرار السياسي ولاستمرار النزاع .

لقد كانت الحروب تندلع لاتفه الاسباب ، فالشك المتبادل بين البربر والعرب ، كان من اهم هذه العوامل ، وكان بعض هؤلاء الامراء لا يتورعون عن التمسك بكل الحجج الواهية ، فسيطرة بعض الزعماء البربر على السكان العرب كان يستثير حفيظة بعض الامراء العرب ، وكثير ما سبب ذلك الحروب ، فابن عباد لا يحتمل ان يسيطر آل زيري على مالقة التي كان اكثر سكانها من اصول عربية ،

وانه مسؤول ـ على ـ حد زعمه ـ بتخليص بني قومه من حكم هؤلاء البربر الاجلاف .

ولقد كانت اشبيلية تتوسع باستمرار ـ نتيجة للحروب المستمرة التي شنها حكامها من آل عباد على الامارات الصغيرة المجاورة التي سارع زعمائها، بعد ان ايقنوا عدم استطاعة جيوشهم مقاومة جيوش اشبيلية بالرضوخ لآل عباد والانضواء تحت رايتهم، ولم يكن المعتضد يفرق في حربه بين العرب والبربر اذا كانت هذه الحوب تضيف جديدا الى اراضيه ، حتى انه كان يشن الحرب على جيرانه بمجرد ان يستنجد به امير تعرض للخطر ، فقد اجتاحت جيوشه اراضي بني الافطس لمجرد ان هؤلاء فكروا بالاعتداء على اراضي ابن البرزالي .

ولم يكن للعصبية القبلية التي سادت الاندلس طيلة حكم العرب لها اي تاثير او رادع ، ولا حتى بين البربر الذين عرفوا بشدة تعصبهم لبني قومهم، ولم يكن النصارى ببعيدين عن هذه الحروب . فكثيرا ما كانت جيوشهم تشترك فيها . وفي احدى المرات، قدموا العون لجيوش بطليوس دون طلب منها وكادوا يفنون جيش اشبيلية ، وباعجوبة نجا قائده اسماعيل بن عباد ، الذي لم ينس لبني الافطس غدرهم هذا. ولم يهدأ ابن عباد في معاركه والحقيقة ان هذه الحرب التي شنها المعتضد ومن بعده ابنه المعتمد ، كانت تلاقي التأييد ، لو ان غرضها كان توحيد الاندلس واعادتها كما كانت ... ولعل المعتضد لو حالفه الحظ في حروبه كان ينوي اعلان نفسه خليفة او حاكما عاما للاندلس الموحدة ، ولم تكن المواثيق والعهود بين هؤلاء الامراء اي قيمة ، فكثيرا ما كان الحليف يفقد ملكه وحياته لاقل هفوة منه تجاه حليفه الاقوى ، فبعد ان كحل المعتضد عينيه برؤية راس يحيى بن حمود حاكم قرمونة الذي قدمه اليه ولده اسماعيل ، واعطيت قرمونة لابن البرزالي سرعان ما انقلب المعتضد على حليفه ، هذا وكلفه سوء سلوكه اتجاهه حياته .

ولم يكن هناك اثقل على هذا الامير ـ المعتضد ـ من وجود البربر في الجزيرة ، فلقد صمم على ازالة ملكهم ، وافتتح هذه الفترة من حروبه باستيلائه على الجزيرة الخضراء من يد القاسم بن حمود الذي خذله اصدقائه بسبتة ولم يصلوه في الوقت المناسب. وظلت اشبيلية ترفع راية الحرب وتصفية الامارات الصغيرة ، فلما جاء المعتمد بعد ابيه كان هذا الاخير قد اضاف الى املاكه ولايات ابن يحيى وبن هارون وبني مرين والبكري من امراء الغرب الاندلسي .

ان هذه الحروب على الرغم مما جلبته من ويلات على الشعب العربي في الاندلس الا انها كان لا بد منها ، وانها حظيت بتأييد المنصفين . فهؤلاء الامراء الصغار الذين ساهموا بغباء وجهل على تمزيق وحدة الامة ، لم يكن لوجودهم على راس السلطة اي مبرر . فان وجودهم يزيد من ضعف الاندلس ومن سهولة وقوعها فريسة هينة بيد اعدائها . فالحري بها ان تضم ـ ولو بالقوة الى هذه المملكة القوية التي لاح مشروع امرائها في توحيد الاندلس يبدوا وكانه قريب المنال ، وخاصة بعد ان استطاع بنو عباد ان يضموا الى املاكهم مدينة قرطبة التي كان كل امراء الاندلس يتمنون ان تكون من ضمن املاكهم لما كانت تتمتع به من مكانة في نفوس اهل الاندلس لكونها عاصمة الخلافة القديمة وعنوان مجد هذه الامة .

فعلى الرغم من ان قرطبة قد زالت ثروتها وابهتها ، فانها كانت لا تزال تحتفظ بكثير مما كان يميزها عن بقية مدن الاندلس ، وكان اشد هؤلاء الامراء طمعا فيها ، هو المامون بن ذي النون ، ولما حاصرتها جيوشه ، استغاث عبدالملك بن جهور بصديقه المعتمد الذي قرر بعد تردد السماح لكتائب اشبيلية بنجدة قرطبة ، وانسحب المأمون من المدينة مخربا بعض المدن لصغيرة بطريقه ، ونفذ ضباط المعتمد المؤامرة التي اتفقوا عليها مع اميرهم ، فعندما حانت ساعة الرحيل ، حاصروا قصر عبدالملك ، وآثر هذا الا يعرض مدينته للدمار وان يحفظ كرامته واسرته ، فاستسلم لهؤلاء الضباط ، وحمل الاسرى من عائلته الى جزيرة « شلطيش » وقد لعبت الاموال في شراء ذمم الكثير من رجال عبدالملك في الحصول على تأييد بعض المترددين من رجال قرطبة . وكانت هذه الحركة من المعتمد قمة اعماله الحربية ، واصبح محل احترام خصومه من امراء الاندلس ، واخذوا يحسبون له حسابا . لم يلاق عمل المعتمد ـ او بالاصح غدره بابن جهور الذي وثق به وطلب معونته اي اعتراض من بقية امراء الطوائف، من حيث انه مناف للاخلاق والاعراف العسكرية ففي موازين ذلك العصر ، حيث يعد الاستيلاء على املاك الغير ، وبأي وسيلة عملا مشروعا ، ومحل فخر لصاحبه ، وانما الاعتراض جاء من حيث ان ابن عباد اصبح يحكم اكبر مقاطعات الاندلس ، وان خطره اخذ يهدد بقية الامراء وكذلك الحسد الذي ملأ نفوس منافسيه وخاصة اولئك الذين كانوا يتمنون ان تكون قرطبة من املاكهم ، حتى ولو اتبعوا نفس اسلوب المعتمد لو اتيحت لهم الفرصة، مشيدين بذكائه الخارق الذي لا حدود له .

ان اي منصف لا يستطيع الا ان يصف هؤلاء

الامراء بالغباء ، وتفضيل المصلحة الشخصية على المصلحة العامة ، وانهم كانوا وبالا على هذه الامة التي مزقتها الحروب الاهلية ، ودب الضعف في جسمها ، ومهدوا الطريق لاعدائهم لكي يجنوا ثمار هذه الفتنة التي غذوها بكل ما وسعهم ، وبدا هؤلاء الامراء يتلقون الضربات القاصمة من الفونسو بعد ان ايقن من ضعفهم وعدم قدرتهم على مجابهته ، ولم يكن اي واحد منهم يلقى عونا من اخيه ، لان الدماء التي سالت على ساحات المعارك ولدت الحقد والكراهية بينهم بحيث اعمتهم عن رؤية الخطر الداهم الذي بدا يطوقهم وينشر الرعب بين ربوعهم ولو لم تلطف بهم المقادير بأن هيأت لهم قوى من خارج الجزيرة جاءت في الوقت المناسب لتنقذ ما تبقى للمسلمين من شبه الجزيرة لزلت رسومهم سريعا تلكم هي قوى المرابطين الفتية المتحمسة .

●

المصادر

ابن الابار ـ محمد بن عبدالله بن ابي بكر
الحلة السيراء ـ تحقيق الدكتور حسين مؤنس
القاهرة ـ ١٩٦٣ .

ابن الاثير ـ علي بن ابي الكرم الشيباني
الكامل في التاريخ

احسان عباس ـ تاريخ الادب الاندلسي
بيروت ـ ١٩٦٢

ابن ابي دينار ـ ابو عبدالله محمد بن ابي القاسم القيرواني
المؤنس في اخبار افريقية وتونس ـ ١٢٨٦هـ

بالنثيا ـ انخل جنثالث ـ تاريخ الفكر الاندلسي ـ تحقيق الدكتور حسين مؤنس ـ القاهرة ـ ١٩٥٥ .

ابن بسام ـ ابو الحسن علي بن بسام الشنتريني الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة

بطرس البستاني ـ معارك العرب ـ بيروت ـ ١٩٥٠

البكري ـ عبدالله بن عبدالعزيز ـ جغرافية الاندلس واوربا
تحقيق الدكتور عبدالرحمن علي الحجي ـ بيروت ـ ١٩٦٨

ابن بلقين ـ الامير عبدالله ـ آخر ملوك بني زيري بغرناطة
التبيان ـ حققه بروفنسال ـ القاهرة ـ ١٩٥٥

بروفنسال ـ الاسلام في المغرب والاندلس ـ ترجمة السيد عبدالعزيز سالم

حسن احمد محمود ـ الدكتور ـ قيام دولة المرابطين
القاهرة ـ ١٩٥٧ .

ابن حيان ـ ابو مروان حيان بن خلف بن حسين القرطبي
المقتبس في اخبار الاندلس ـ تحقيق الدكتور عبدالرحمن علي الحجي .

ابن خاقان ـ الفتح ـ مطمح الانفس ـ القاهرة ـ ١٩٢٥

خالد الصوفي ـ تاريخ العرب في اسبانيا ـ بيروت

ابن خلدون ـ عبدالرحمن بن محمد ـ تاريخ بن خلدون ـ
القاهرة ـ ١٢٨٤هـ .

دوزي ـ رينهارت ـ ملوك الطوائف ـ الترجمة العربية

سعيد عبدالفتاح عاشور ـ الدكتور ـ اوربا في العصور الوسطى
القاهرة ـ ١٩٥٨

ابن سعيد المغربي ـ المغرب في حلي المغرب ـ تحقيق الدكتور شوقي ضيف ـ القاهرة ـ ١٩٦٤ .

السلاوي ـ **احمد بن خالد الناصري** ـ الاستقصاء لاخبار دول المغرب الاقصى

السيد عبدالعزيز سالم ـ **الدكتور** ـ تاريخ المسلمين واثارهم في الاندلس ـ القاهرة ـ ١٩٦٢

الشريف الادريسي ـ نزهة المشتاق في اختراق الآفاق
ليدن ـ ١٨٦٩

شكيب ارسلان ـ آخر ايام بني سراج ـ مصر ـ ١٩٢٥ .

صلاح خالص ـ اشبيلية في القرن الخامس الهجري ـ بيروت ـ ١٩٦٥ ـ المعتمد بن عباد ـ بغداد ـ ١٩٥٨

الطاهر احمد مكي ـ **الدكتور** ـ ملحمة ـ السيد ـ ترجمةودراسة
القاهرة ـ ١٩٧٠

طرخان ـ **الدكتور ابراهيم علي** ـ المسلمون في اوربا في العصور الوسطى ـ القاهرة ـ ١٩٦٦ .

العبادي ـ **الدكتور مختار** ـ المجمل في تاريخ الاندلس ـ
القاهرة ـ ١٩٦٤ .

ابن عذاري ـ ابي عبدالله محمد المراكشي ـ البيان المغرب ـ نشره برونفسال ـ

علي ادهم ـ المعتمد بن عباد ـ القاهرة ـ ١٩٦٢

غرسيه غومس ـ الشعر الاندلسي ـ ترجمة الدكتور حسين مؤنس

محمد عبدالله عنان ـ الاثار الباقية في اسبانيا والبرتغال ـ
القاهرة ـ ١٩٦١ ـ دول الطوائف ـ القاهرة ـ ١٩٦٠ .

المراكشي ـ **عبدالواحد** ـ المعجب في تلخيص اخبار المغرب ـ
تحقيق محمد سعيد العريان ـ القاهرة ـ ١٩٦٣

المقري ـ **احمد بن محمد التلمساني** ـ نفح الطيب ـ القاهرة ـ ١٩٤٩

ياقوت ـ **الحموي** ـ معجم البلدان ـ طهران ـ ١٩٦٥

يوسف اشباخ ـ الاندلس في عهد المرابطين والموحدين ـ ترجمة محمد عبدالله عنان .

Atkinsom William (C.):
Spain A Brief History, London, 1934.
A History of Spain and Portugal. London, 1961.

Dozy (R.P.A.):
Histoire Abbadidarum. Lyde, 1864.
Histoire des Musulman d'Espagne. Lyde, 1961.

Pidal (R.M.):
The Cid and His Spain. London, 1934.

Proveanal (E.L.):
Histoire de L'Espagne — Musulmane. Paris, 1960.

Seville — Encyclopaedia of Islam.

Scott (S.P.):
History of the Moorish-Empire in Europe. London, 1904.,